

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ١٨]

وهنا أمور ثلاثة:

الأمر الأول: لا قرينة على كون المقصود بالعلماء في الآية خصوص الفقهاء أو الاصوليين أو علماء الكلام أو علم الأخلاق، وإنما مقتضى إطلاقها أن المقصود بالعلماء كل من أوصله علمه إلى الايمان الراسخ بالله تبارك وتعالى، سواء وصل بالفقه أو بالكلام أو بالفيزياء أو بالرياضيات.
إلا أن الآية لا تتحدث عن مجرد الإيمان، وإنما تتحدث عن الخشية، لقوله - إنما يخشى الله -، فما هو المراد بالخشية؟

وهنا رواية عظيمة عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن حماد بن عثمان، عن الحارث بن المغيرة النصري، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" قال: يعني بالعلماء من صدق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم.
أي أنه يرى ملتزماً بالواجبات، مجتنباً للمحرمات، مظهرًا للورع والتقوى، بحيث يكون فعله مصداقاً لقوله، فهذا هو الذي حقق الخشية من الله، لا مجرد الإيمان والاعتقاد من دون سلوك يكون مظهرًا للخوف من الله تبارك وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصِيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

الأمر الثاني: أن طريق العلماء محفوف بمجموعة من الآداب التي ينبغي الالتزام بها فما هي هذه الآداب؟
وهذه الرواية الشريفة ذات السند التام تفصل الآداب الجليلة: محمد بن يحيى العطار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم).

ومضمونها أن أبرز آداب العلماء ثلاثة:

الأول: الحلم

فلا يوجد عالم لا يتعرض لإساءة الناس والغمز واللمز والكلام، ولكن العالم قلبه طاهر، ويقابل كل ذلك بالعفو وغض النظر، فهو مصداق للآية المباركة: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الثاني: الوقار

فإن طالب العلم وقور لا يصدر منه تصرفات تخل بموقعه الاجتماعي، فلا يليق به أن يركض في الشارع وهو معمم، ولا أن يحضر مجالس موسيقى وإن كانت مباحة، ولا يعزف ولا يصفق، فإن كل هذه الأمور تخل بالهيئة الروحانية للمعمم.

الثالث: التواضع

حيث ورد: (تواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)، فالتواضع مطلوب، وكما أن الطالب يرجى منه التواضع للأستاذ في عباراته وفي مناقشاته وفي تعامله، كذلك يرجى من الأستاذ أيضاً أن يكون متواضعاً مع طلابه، وأن يستمع إلى أسئلتهم ومناقشاتهم، وأن يستقبلهم بالصدر الرحب، وأن يشجعهم على المسألة و الكتابة، وأن يحثهم على طلب العلم بنحو يشعرون معه بالأخوة الحميمة.

الأمر الثالث: إذا وصل الإنسان إلى مستوى كونه عالماً متحدثاً بعلوم أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين للناس فهنا تزداد وظائفه وآدابه، وهذا ما تحدثت عنه هذه الرواية الشريفة: عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد البرقي، عن إسماعيل بن مهران، عن أبي سعيد القمطاط، عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكر، وفي رواية

أخرى: ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها، ألا لا خير في نسك لا ورع فيه).

وفي هذه الرواية عدة معالم ومظاهر للفقهاء:

المعلم الأول: أن يكون خطابه خطاباً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، فلا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله.

نعم، من وظائف الفقيه أن يشجع الناس على الاحتياط والورع في الدين وترك الشبهات - فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات -، ولكن من جهة أخرى أن لا يبلغ الخطاب حداً يحرم به حلال الله، فإن هذا يوجب النفور من الدين خصوصاً في زماننا هذا، ولا حداً يحلل حرام الله ليتجراً الناس على المعاصي وهتك الحرمات واختراق القوانين الإلهية، وفي كل فترة يخرج بكلام يشجع الناس فيه على المعصية وخرق الحدود.

المعلم الثاني: الاهتمام بالقرآن، فإن من مظاهر العالم الاهتمام بالقرآن تلاوة أو تفسيراً، أو تدبراً وإشاعة وترويجاً، فإن الاهتمام بالقرآن كان هو ديدن أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، فقد ورد في الرواية: (ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره).

المعلم الثالث: التأمل، فإن العالم دائماً في حالة تأمل، حيث يتأمل في سلوكه ويتأمل في نفسه، ويتأمل في الروايات، كما قال (عليه السلام): (ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر)، والمقصود من القراءة هو قراءة القرآن الكريم والتدبر فيه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

فنحن قلوبنا مقفلة قاسية متحجرة، تحتاج للانفتاح عن طريق التدبر بالمواعظ والعبر التي وردت في القرآن، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

وقال عليه السلام: (لا خير في عبادة ليس فيها تفكير)، وكما ورد عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله): (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)، فلو جلس الطالب في مصلاه في الليل وتفكر: أين طريقي؟ وهل

هو سليم أم غير سليم؟ وما هي النهاية والغاية؟ فإن ذلك يقوده إلى ضبط نفسه وسلوكه - وهو خير من عبادة سنة، كما ورد عنه (صلى الله عليه وآله) - .

نسأل الله لنا ولكم أن يوفقنا لمرضاته ويجنبنا معاصيه، وأن يجعلنا ممن طلب العلم والعمل الصالح، وأن نكون من المرضيين عند مولانا صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.